الاحتضارات والقبريات

(تابع ما قبلهُ)

احتضارات العجم

من ادق اوصاف المحتضرين قول هوميروس في الياذاتهِ [1] يصف هرغليون لما رُمي بسهم (الالياذة صفحة ٥٣٤)

فرأسُ الفتى لما تحتهِ مُنيَ بمغفرهِ المسرود أُثقل يغني
كزهرةِ خشخاشٍ يمالُ روضةٍ يثقلها طلٌّ الربيع فتنحني

ولما صرع اذرست في النشيد السادس (صفحة ٤٤٠) وادركهُ منيلا :

على ركبتيهِ ترامى ذليلا وقال : "الآفاعفُ وارضَ بديلا
فانَّ كنوز ابي بادٍ خار حديدًا وصفرًا وصافي نضارِ
فان تعفُ عني فأفتادُ حيًّا لفلكك يرلك كنزًا مهيًّا"

فرقَّ لهُ منيلا وكاد يعتقهُ لولم يبادر اغاممنون ويعنف اخاهُ على استبقائهِ فأجهز عليهِ وكان هذا آخر كلام نطقَ بهِ

وكان اليونان يعتقدون في بعض الازمنة ان المرء اذا احتضر خفَّت نفسهُ وادرك المغيَّبات كما حدث لفطرقل فانهُ تنبأ عند احتضارهِ بموت هكطور قتيلاً بذراع اخيل وهاك وصف احتضارهِ وقولهُ (ص ١٠٣٨) :

"ومني خذ نبأً صدقا فنطرقلُ بالحق قد نطقا
فما انت بعدي حيٌّ طويلا فانَّ الرَّدى بك قد احدقا
وقد حان حينك فاشقَ بهِ قريبًا بكفِّ اخيل اللقا"

وكما تنبأ هكطور ساعة موتهِ بدنوِّ أجل أخيل (ص ١٠٣٨)

فقال بزاهق الانفاسِ "آمِ اجلْ بلوتك ذا
جنانٍ كالحديد فلن يلينَ امي وينكسرا
ألستَ الآن تخشى ان يهالَ عليك غيث محنْ
وتنتمَ لي سراةُ الخلقِ منك ولو عقيبَ زمنْ

[1] نقلنا هذه المنظومات من الياذة هوميروس المعرَّبة نظمًا بقلم العلامة سليمان افندي البستاني

وتنكبَ يوم فاريسُ وفيبوسُ باسكيًا
بقتلك يُخمدان على احتدام بالفؤاد كنَّ

ولما أُصيب بيركليس بالطاعون واشتدَّ عليهِ ألمهُ جاءهُ اصحابهُ ووجوه بلدهِ يسلّونهُ ويذكرونهُ فضائلهُ على وطنهِ ظانين انهُ غير سامع. فباذنهُ الألم هنيهةً التفت فيها اليهم قائلاً: "اراكم تمدحوني بما فعلهُ كثير من الناس وتركتم ما هو افضل خير جئتهُ في حياتي وهو انني لم اجعل احدًا من مواطنيَّ على لبس السوح والنوح على صاحبهِ لفعل من افعالي". وما اتمَّ كلامهُ حتى عاودهُ الألم الشديد فذهب بحياتهِ سنة ٤٢٦ ق م

ولما كانت حرب اليونان مع الفرس في القرن الخامس قبل الميلاد دخل اثينة جنديٌّ مخضبٌ بالدماء مثخن بالجراح ممتقع الوجه فاجتمع حولهُ الشيوخ والنساء والاولاد ليسألوهُ عما جرى للمتيادس وجيشهِ فاتكأ على رمحهِ وهو لا يستطيع التكلم من التعب والوهن ولكنهُ تجلد اخيرًا وصرخ قائلاً: «سرُّوا يا مواطنيَّ فان النصر لنا» ووقع من فورهِ ميتًا

ولما احضروا السم لسقراط الفيلسوف وتجرَّعهُ بجرَّة أخذ اصحابهُ يعولون ويبكون حتى ان قاتلهُ لم يستطع ضبط نفسهِ من البكاء. فقال لهم سقراط: «لماذا تبكون ونحن قد اخرجنا النساء من هنا لئلا تسمع نواحًا فكونوا رجالاً واعملوا كالرجال» — ثم قال متبسماً وقد بلغت روحهُ التراقي — «يا كريتون انا مديونون لاسكولاب بديكٍ فلا تنسَ ان توفيهُ اياهُ» ثم ارتمش جسمهُ واسلم الروح سنة ٣٩٩ ق م

ولما حمي وطيس الحرب بين طيبة واسبرطة وجرح ايامينوندس زعيم الطيبيين بنبلة في صدرهِ ونقل الى خيمتهِ اسرع اليهِ رسول من ساحة الحرب وانبأهُ بفوز الطيبيين على الاسبراطيين فقال «إذن هذا ما كنتُ اتمناهُ» ثم اخرج النبلة من صدرهِ ومات من فورهِ سنة ٣٦٣ ق م

ولما حضرت الاسكندر المكدوني الوفاة امسك خاتم الملك بيدهِ واراد ان يلبسهُ لبرديكاس وامرهُ ان ينقل جثتهُ الى هيكل عمون في مصر. ويقال انهُ سئل اذ ذاك عمن يريد ان يخلفهُ في الملك فقال: «انما يخلفني اشدكم بطشًا» وقيل «بتولاها من يستحقها» واسلم الروح في سنة ٣٢٣ ق م

وروي بعضهم ان ارسطو الفيلسوف مات قهرًا لاختفاء علة المدّ والجزر في بحر أوريب عنهُ ولذلك ألقى بنفسهِ في ذلك البحر قائلاً: «ان بحر اوريب ابتلعني لانني لم ادرك كنههُ» فمات سنة ٣٢٢ ق م

ولما عرف الجنود ان ديموستين الخطيب المشهور في هيكل بجزيرة كالوريةَ خاطبوهُ فوصدهم

بالخروج بعد ان يكتب وصيتهُ وعهدهُ ثم وضع قلمهُ في فمهِ وكان فيهِ السم وستر رأسهُ فحفر الجنود بهِ حتى اذا شعر بان السم سرى في جسدهِ كشف رأسهُ وخرج وهو يقول : « اني اخرج من هيكلك يا بنتون حيًّا ولا اسمح لانتيباتر والمكدونيين ان يدنسوهُ » — ثم خارت قواهُ فأشار الى الجند ان اسكوني ففعلوا ومشوا بهِ فلما اوصلوهُ ازاء المذبح سقط ميتًا وكان ذلك سنة ٣٢٢ ق م

ووقع فوقيون وهو من عظماء اليونان في يد اعدائهِ وارادوا ان يسقوهُ كاس الردى مع رفقائهِ فاستلفت الشعب للاصغاء الى كلامهِ بحديث بليغ ليس هنا محل ذكرهِ فلم يفلح فقال لهُ احد اصحابهِ وهو مسوقٌ الى الموت : الا تعهد بشيء من الوصاة الى ولدك . فقال « اوصيهِ ان لا يحقد على الاثينيين وان يتناسى جورهم » ثم جرّع رفقاؤهُ السم فنفد ما في الوعاء منهُ فقال لهُ الحارس : لم يبقَ في الكاس من السم ما يكفي لقتلك فيجب ان تدفع اثني عشر درهمًا ثمن ما يقتلك منهُ — فالتفت فوقيون الى احد اصحابهِ وقال : « يا صديقي ارجو منك ان تؤدي عني ثمن السم اذ لا يمكن للانسان ان يموت مجانًا في اثينة » فاحضر السم فشربهُ ولفظ انفاسهُ سنة ٣٢٢ ق م

وامر فيلبس الثالث بعض خدامهِ ان يسقوا اراتوس سمًّا فلما شعر بسريانهِ في جسمهِ عادهُ صديقهُ كيفالون ورآهُ يبصق دمًا فعجب من صبرهِ فقال لهُ اراتوس « لا تتعجب يا صاحِ فان هذه ثمرة معاشرة الملوك » ثم خرجت روحهُ سنة ٢٢١ ق م

ولما تجرّع هنيبال القائد القرطاجي الشهير كاس السم سنة ١٧٣ ق م واحس بالموت قال: — « فلنتخلص الرومانيين من الرعب الذي استولى عليهم من شيخ نظيري »

وقال شيشرون الخطيب الروماني الشهير لما ارادوا قطع رأسهِ سنة ١٠٦ قام — « ياعلة العلل ارحمني »

ولما احتضر الملك اسكندر المكدوني وهو يحاصر حصنًا في شرقي اورشليم دخلت عليهِ زوجتهُ الملكة الكسندرة وقالت والدموع تترقرق في عينيها الى يد من تتركني انا واولادك وانت تعرف ضغائن الشعب وبغضهُ اياك — فقال : « ان عملتِ بمشورتي ابقيتِ الملك للشرِ ولأبنائك فاكتمي موتي عن جنودي الى ان يفتتحوا هذا الحصن وانقلي بالمدينة مثل فعلي واذا عدتِ منتصرة الى اورشليم فاهملي الى قصري سرًّا وتزلفي الى الفريسيين وامنحيهم ما يريدون من الوجاهة امامك فانتِ ادرى بما لهم من نافذ الكلمة في الشعب فمن احبوهُ أحبَّهُ الشعب ومن ابغضوهُ ابغضهُ ثم استقدميهم اليكِ بعد وصولهم واريهم جثتي وقولي لهم . هذه

جثة منكم بين ايديكم فاصنعوا بها ما شئتم فان احببتم ان لا تواروها التراب عقاب ما انزله بكم من المضار فكم وان وددتم ان تحتفظوا بدفنها فلكم وحقني لم اتك لا تصنعين شيئاً في الملك دون مشورتهم وارشادهم ولي مل٠ الثقة انهم يحفظون بدفني ويرفعون منزلتك — ولم يلبث ان لفظ انفاسهُ في سنة ٧٩ قام

ولما احتضرت الكسندرة زوجتهُ دخل عليها شعبها يتكون من ارسطوبولس اوقتكم بابنها هركانوس وبهم فقالت : " انا في سبيل الموت واهتمامي بنفسي اجدر بي واولى فماذا اصنع وانا اقاسي غصص الشون هوذا رجالنا وعددنا واموالنا في ايديكم فدبروا الأمر برأيكم واستعينوا بالله على شؤونكم والى اليوم كفاءة " ثم ماتت

ولما طلب اليهود من الشيخ يوحنان الصالح ان يدعو لهم على ارسطوبولس والكهنة الذين معهُ ليظفرهم الله بهم لم يلبِّ طلبهم فتوعدوهُ بالقتل فلما ابى الحوا عليهِ فرفع يديهِ الى السماء وقال : « ايها الرب العظيم انت برأت الخلق وانت مالكهُ لقابهم وقلوبهم تصرفها كما تشاء فأضرعُ اليك ان تصلح قلوب امتك وكهنتك وتسدد آراءهم وتستميلهم الى طاعتك ولا تمن بعضهم على بعض في مكروه لكن كن لهم معيناً في الخير والصلاح واصرف اللهمَّ عنهم الشر واقصِ الشحناء من بينهم وحببهم بعضهم لبعض لتتحد كلمتهم على مرضاتك والزلفى اليك ولا توازر الشعب على كهنتك ولا تساعد كهنتك على شعبك ليفوزوا باثمك شرًّا » — فلما فرغ ورأوا دعاءهُ يخالف مبادئهم قتلوهُ

وقال اوغسطس قيصر وهو يجود بنفسهِ (سنة ١٤ م) — « هل اجدت تمثيل روايتي فان كنتم قد سررتم من تمثيلي فصفقوا »

واوصى هيرودس ابنهُ قبل موتهِ بما معناهُ « اقتل جميع من في السجون بعد وفاتي ليكون في كل بيت عويل وبكاء بعدي لانني اكرهُ ان تُسرَّ الناس لنقدي » فلم يتم ابنهُ وصيتهُ بل اطلقهم واحسن اليهم وكانوا خلقاً كثيراً

ولما عزم نيرون الظالم على الانتحار سنة ٦٧ م قال مشيراً الى مهارتهِ بالفنون الجميلة ولاسيما فن الموسيقى " سيهلك بهلاكي اكبر متفنن في العالم "

وقال اسبسيانوس لما احتضر " يجب على الملك ان يموت واقفاً " ولفظ انفاسهُ سنة ٩٠ م

وقال بوليكربوس تلميذ القديس يوحنا الانجيلي لما ربط بوتد الحريق " دعوني من الوثاق فان من وهبني قوَّة على الاتيان الى النار يهبني صبراً على احتمال النار " وتوفي سنة ١٥٥ م

وقال مرقس اوريليوس لما بلغت روحهُ التراقي سنة ١٨٠ " فلتهيأ للشغل "

وقال سبتيموس ساويروس وهو يلفظ انفاسهُ سنة ٢١١ م " قد كنت امثل كل شيء ولكنني ارى الآن كلَّ شيء باطلاً "

وقال القديس كبريانوس الافريقي لما قضي بقتله سنة ٢٥٨ م " اشكر الله لأنهُ اعتقني من سجن هذا الجسد "

ويقال ان القديس باسيليوس الكبير لما تهدَّدهُ موديستوس الوالي بمصادرة املاكهِ وتعذيبهِ وقتلهِ وخاورهُ في ذلك مرارًا أصرَّ على عنادهِ فأُخذَ عليهِ ساعة قتلهِ وقال لهُ راجع افكارك فغدًا ارى على اي شيء عزمت فقال له : " غدًا مثل اليوم " واسلم الروح سنة ٣٧٩ م

وقال القديس يوحنا الذهبي الفم وهو يجود بنفسهِ " المجد لله على كل شيء دائمًا " ثم قضى نحبهُ سنة ٤٠٧ م

وقال القديس اوغسطينوس وهو يجود بنفسهِ سنة ٤٣٠ م " تنفصل الاغصان عن الاشجار والاحجار عن الابنية فلماذا نتعجب من موت البشر وهم جديرون بالفناء "

ولما قتل كسرى يزدجرد وزيرهُ وجد في منطقتهِ كتاب فيهِ " اذا كان القضاء حقًّا فالحرص باطل واذا كان الغدر في الناس طبعًا فالثقة بكل احد عجز واذا كان الموت بكل احد نازلاً فالطمأنينة الى الدنيا حمق "

ولما شعر القديس يوحنا الرحوم بفصص المنية كتب وصية كبيرة قال منها مخاطبًا الله " اشكرك اللهمَّ لانك اهلتني لأُقدِّم لك ما ضحني اياهُ . ولم يبقَ لي الآن من مال الدنيا الاَّ ثلث دينار فاتحفهُ لاخوتي الفقراء . ولما انتدبتني عنايتك الى اسقفية الاسكندرية وجدت فيها زهاء ثمانية آلاف دينار وكثيرًا من هدايا اهل المبرَّات وأحرزت مالاً اوفر من هذا كثيرًا فدفعتهُ لوجهك الكريم والآن في يديك استودع روحي " واسلمها روحهُ سنة ٦١٩ م

وقال شرلمان ملك فرنسا العظيم وهو في النزع سنة ٨١٤ م " يا الهي في يديك استودع روحي "

ولما حانت وفاة الامير ياروسلاف الحكيم الروسي استقدم ابناءهُ الخمسة واوصاهم مودِّعًا بعد ان قسم بينهم البلاد الروسية قائلاً : " يا بنيَّ عيشوا بالمحبة الخالصة والإخاء الصادق ولا تخاصموا بل اتفقوا كلمة واخدموا مصلحة واحدة وغاية واحدة غير ناسين انكم من سلالة أب واحد وأمّ واحدة محافظين على الحقوق والواجبات التي يتقاضاكم اياها وطنكم . وعلى شرف اجدادكم وآبائكم متمسكين بالمبادئ القويم والطريقة المثلى فبهذا ترتفع منزلتكم ويعلو شأنكم

وبغداد فخركم وتفو بلادكم . يا اولادي اياكم ان تخالفوا وصيتي وتثيروا نار الخصام بينكم لانهُ يفضي الى انقسام كلمتكم واضعاف قوتكم والفتّ في عضدكم فتخسرون السعادة والراحة وتخدرون الى دركات المُوَن وعلى الجملة فحفظوا وصيتي نجاحكم ومخالفتها وبالكم" ثم اسلم الروح سنة ١٠٥٤م

وقال البابا غريغوريوس السابع (١٠٨٥م) — " احببت العدل وابغضت الجور فلذا اموت في المنفى"

ولما دنت وفاة هنريكوس الرابع ملك المانيا (١١٠٦م) ارسل سيفهُ الى ابنهِ الذي كان قد ازالهُ عن العرش الملكي قائلاً : " ان هذا هو ما ابقيتهُ لي"

عيسى اسكندر المعلوف

اباه الضيم

خُلق الانسان وجُعل لهُ من الارادة ما يتصرف تحت سلطة العقل في احوالهِ الكونية واعمالهِ الاختيارية فالعقل مدبّر هذا الخلق المستقل في حكمهِ وحاكم هذا الانسان المنفرد في تدبيرهِ بل هو الانسان بجوهرهِ وسواهُ اعراض ملازمة

وما المرء الاّ الاصغران لسانهُ ومعقولهُ والجسم خلق مصورُ

فاذا كان العقل منفرداً في تدبير المرء كان هو والارادة لا يقبلان مزاحمة ولا يريدان مشاركة فاذا سارت النفس في طريق مدفوعة بسلطة الارادة كان من اعتراضها في سيرها وردّ حركتها غير ما تؤمّلهُ وضدّ ما تألفهُ وترتبهُ فتراهُ غريباً ويدعوها استغرابها الى النفور. ولكن سيرها لا يستلزم الاطراد في سنن الحق والانتهاج في منهج الصواب بل هو تابع لحكمة القائد (العقل) فان كان ثقفهُ التهذيب وسددتهُ التجارب وسرى على النظام الحكيم سرى آمناً من العثار متثبتاً من الزلل وان كان قد غلبت عليهِ الشهوات وتلاعبت بهِ النوازع الخارجية من البيئة والعشرة لم يثقف ولم يهذب ولم يسلك على النهج الحكيم كان سيرهُ ضلالاً فكان لهُ من الحكمة والسداد قيود قيدت سلطة الارادة حيث تأخذ بزمامها عن الطماح وازعة الشريعة التي دعت اليها الضرورة الاجتماعية وثبتت ببقاء الاصلح وكان منها صدٌّ للنفس عن تهورها في تيهور الضلال ومانع لها من اشرافها على مهالك الخطاء.

مع الف النفس زمناً طويلاً هذه القيود العادلة تراها اذا انصرفت في امر ما وصدّها عنهُ هذا القانون العادل رجعت مكرهة. فالارادة في كل احوالها اذا رجعت الى اختيارها